

توكسيدا مدینة رومانية

فالظاهر أن عرض البحر كان يشكل ينبعاً عاماً لأنواع من الأسماك لا توجد في النهر ، وهذه العوامل قد ساعدت على قيام دسخنة على المرتفعات القريبة من الوادي وقد تساءل علماء الآثار كيف تسم التفكير في بناء حاضرة رومانية ربما لم تكن في البداية سوى «مدينة-قطنطرة» على نسق مدينة القنيطرة الحالية إذ أول شيء كشفه الاستاذ تيسو Tissot ما سماه بمعبر روماني وقد اعتقاد هذا العالم تخيل وجود معابر رومانية حقيقة في المغرب من العجارة شبيهة بما في الأقاليم الرومانية بأوروبا غير أن هذا الوهم الذي وقع فيه تيسو عام 1874 يتضح في أن بعض هذه المعابر عربية حديثة العهد وبعضاها الآخر لا وجود له الا في ذهن متخيله ولم يشر شاتلان في كتابه مغرب الرومان «le Maroc des Romains الصادر (عام 1944 ص 76-8) إلى آية قنطرة على نهر سبو ولعل الأمر لا يعد مجرد تخيل جبارات من أساس سور المحاذى لجرف الوادي نظراً لعدم توفر ما يشهد بوجود معبر في مستوى الحاضرة الرومانية . أما المساحة الواقعية على الضفة اليمنى للنهر فهي عبارة عن مستنقع رأس الداورة (مرجة) وشريط من الهضاب حيث تتعرج الطريق الساحلية نحو باناسا حسب رحلة انطونيان d'Antonin tinéraire الغير أن قيمة المدينة القديمة ترجع خاصة إلى أهمية وادى سبو الذي وصفه بلين Pline في كتابه التاريخ الطبيعي Histoire Naturelle (ج 5 ص 5) بأنه نهر عظيم تمخر عيابه المراكب وليس هذا بيدع اليموم وإن كانت الملاحة تقف عند رصيف القنيطرة لأن سبو كان يعتبر طريقاً نهرياً عام 1922 (I) إلى مشرع بلقصيري وقد كان مجرى الوادي يعالج بالآلات جارفة ولكنه كان مطروقاً في القديم بدون هذه الوسائل الحديثة والنصوص

على بعد عشرة كيلومترات جواً من مدينة القنيطرة يقع ضريح الولي سيدى على بن أحمد بالضفة اليسرى لنهر سبو وبجانبه تقوم انقاض المدينة الرومانية القديمة تموسیداً وإذا كانت المعالم الطبيعية قد تغيرت منذ ما قبل الميلاد فإن مسيل الوادي ما زال في مجراه لم يعد عن مصبه الحال ويظهر أن سور المدينة كان محاذياً للنهر لأن قنوات مياه المستحثمات البخارية تنتهي بمجرد خروجها من هذه الحمامات .

وكان البقعة آمنة تحصر جوانبها قلعة مجهزة ببطامير وبئر وان كانت هنالك رواية تقول بأن هذه القلعة حديثة أقيمت في القرن العاشر لصد غارات أهل زمور على أراضيبني حسن ومهمها يكن فان هذه السهول كانت مرعى خصباً للبساتنة وربما حقلأ صالح للزراعة بالإضافة إلى غابة المصورة الشريعة يعطيها ومواردها الاجتماعية وكذلك الطين الخزفي وحجر المسن grés والماء القياحى الذى تقىض به منابع النهر ولعل هذا يفسر لنا لما ذا لم يغير لحد الآن داخل المدينة الرومانية على آبار ولا على بقایا معابر لنقل الماء .

والنهر حاصل بأسمائه تعدد السكان بموزع غذائي هام طوال الفصول وقد عنى فن الحفريات بهذه المدينة وكذلك في مدينة باناسا على عدد كبير من الشخصوص ومجازف الصيد filets وقنديل يمثل صيادة بقصبته وقد تجلت بقایا معمل للتصبير تدل على أن السمك الملحق كان من المواد المصبرة كما أن حبائيل واسيعة × كانت تستخدم لاقتناص الأسماك العابرة ومع ذلك فإنه يحق لنا أن نتساءل لما ذا انسست هذه المعامل بعيداً عن البحر وإن كنا نعلم أن أسماك النهر ربما كانت كافية لأمداد معامل التصبير خلال السنة .

* هذه الحبائيل تسمى madrague و تستعمل في صيد الطفون وأصلها عربي ولعلها من الديكة أي الطريدة من طرد طرداً ذاول الصيد وان كان هذا اللفظ خاصاً بصيد البر .

(1) Célérier في بحثه المستنقعات في سهل سبو - هسبريس ج 2 عام 1922 .

آخرون أنها تموسیدا التي كانت انقاذهما في أوائل القرن السادس عشر ائلادي بارزة اكتشاف قبور زلزال أشبوة الذي تأثرت به شكلية الشاطئ، المجرى بين سلا والمهدية وقد سبق للمؤرخ تيسو Tissot أن أشار عام 1874 إلى بقايا أثريّة رومانية سماها الفراعنة (جمع فرعون) وما زالت تعرف بهذا الاسم وقد عثر على كتابات تشير إلى باناسا عام 1872 كما عثر في سيدى على بن احمد على أنقاض مدينة قديمة هي التي حقق انطونان (8) في رحلته وضعها الجغرافي على نفس المساحة أي اثنين وثلاثين ميلاً بين باناسا وشالة ونظراً لكون انقاض سيدى على بن احمد واقعة على نفس البعد بين شالة وسيدي على بوجنون فإن ضريح سيدى على بن احمد لا يمكن أن يكون الا في تموسیدا لا سيما وأن انقاذهما هي الانقاض الوحيدة الموجودة أسفل حوض سبو.

ويغمر الماء أساس مدينة تموسیدا في انحدارها من الجنوب إلى الشمال ولم يبق منها سوى سورها المتهم في الشمال والشرق ويقدر طول هذا السور بـ 15 كيلومتر وستمائة متر وتتواءزى الناحية الشمالية لهذا السور في 360 متراً مع طول النهر أنها الجهة الجنوبيّة فإن طولها أربعمائة متراً تشمل معسكراً للقلعة Castrum التي أشار تيسو إلى أن ضريح سيدى على بن احمد واقع داخلها والتي شرع المتقبون في الكشف عنها عام 1935.

وقد صدر عام 1932 بحث حول تموسیدا في ريال انسيلوكو بيدي Real-Encyclopédie استعرض النصوص اللاتينية في الموضوع ومن جملتها نص لبطليموس يرى أن المدينة واقعة جنوب شالة غير أنه ينافق نصاً آخر لبطليموس أيضاً يشير إلى وجودها في شمال شالة ويتأكد ذلك بوئيق أخرى تعرف بكتاب

(2) جورج كولان في بحثه «فاس مينا، بحرى» نشرة التعليم العمومي بالمغرب (عام 1945).

Nous allions de Fès à Catane sur la galère capitane

(5) وان كان Thouvenot يزعم أن المؤلِّ ادريس إنما جلد بناء مدينة رومانية هي فاس نظراً للعثور على قنديل ونقود رومانية من البرونز هناك - راجع تموسیدا وهو كتاب في مجلدين نشرته المدرسة الفرنسية بروما (ج 2 ص 11).

(6) راجع النصوص الفميسة لدو كاسترج 1 ص 638 عام 1934.

(7) رولان ماريشال Roland - Mareschal في بحثه حول تخوم موريانيا الطنجية جنوب شالة (ج 2 الفصل الثالث عشر ص 6 عام 1924).

(8) رحلة انطونان Itinéraire d'Antonin الامبراطورية الرومانية وأبعادها وهي وإن كانت حديثة فإنها منسوبة للإمبراطور انطونان لوبيو 161-86 م.

التاريخية شاهدة بذلك ففي عام 1624 صعد مجرى سبو سير سان ماندريل بمركب حمولته ثلاثة طن وقبله وصل تاجر فرنسي عام 1560 إلى فاس عن طريق سبو لنقل السلع إلى مرسيليا (2) وهذا يدل على أن المراكب التي تقطع المحيط كانت تصعد نهر سبو إلى رافده وادي فاس وقد تحدث المؤرخ كاليديرون (3) عن بحر فاس عام 1628 كما أشار فيكتور هوكر (4) إلى ذلك في القرن التاسع عشر ومن المؤرخين المغاربة على الجزائر الذي أكد في زهرة الآس وجود دار لصناعة المراكب والسفن بفاس وقد صنع عبد المؤمن بن علي في القرن السادس الهجري مائة وعشرين سفينة بفاس كما أكد موبيت في رحلته التي نشرت عام 1683 أن مينا، فاس كان يتقبل سفن ذات حمولة ثلاثة طن.

ويتبين من هذه الأدلة أن الرومان كان في وسعهم الوصول إلى المكان الذي بنيت فيه مدينة فاس إلا أنه لا يوجد ما يؤكّد تأسيسهم لمركز خاص بهذه الناحية (5) وكيفما كان الأمر فإن سبو كان يؤدي إلى مقربة من وليلي مما يجعل لهذه المدينة الرومانية طابعاً برياً أقل مما عليه الحال في الواقع.

وقد أصدر ملك البرتغال عمانويل الأول في 27 سبتمبر 1584 تعليماً إلى رجاله بالقيام بجولة سرية في مصب سبو (6) فأشار إلى جزيرة سبو وقصر فرعون ويلوح من الوثائق البحرية البرتغالية أن جزيرة سبو التي سميتها جزيرة ماري تقع على مرحلة من مصب النهر وهي الجزيرة الصغرى المسماة جزيرة سيدى يوسف قرب القنطرة أما قصر فرعون فقد ظن البعض أنه وليل بيده أن هذه المدينة الرومانية لا تحمل وحدها هذا الاسم فهنالك ساقية فرعون أي مدينة شالة وكدية فرعون بجنوب المغرب (7) ولذلك ارتدى بعض علماء الآثار أن المراد بقصر فرعون هو انقاذهما باناسا الواقع على نفس الوادي قرب المصب بينما ارتدى

(3) ديكار مجلد الاندلس عدد 26 م 2 عام 1961.

(4) في نشيد القراءة ذهبنا من فاس إلى قطان (مرسى بচقلية)

(5) وان كان Thouvenot يزعم أن المؤلِّ ادريس إنما جلد بناء مدينة رومانية هي فاس نظراً للعثور على

الفنونية بروما (ج 2 ص 11).

الازلية في المغرب برهن على أن ليكسوس وطنجي لاتوغلان وحدهما في القدم فهناك مدن رومانية اسفلت خزياتها عن معالم الاحتلال سابق لكل نقوذ سياسى رومانى فرق بناسا بلغت التنقيبات أحد عشر متراً عمقاً وكشفت عن ستة مستويات تبرع عن مراحل متتابعة في الاحتلال أقدمها يرجع على الأقل إلى القرن الثالث قبل الميلاد كما اتضح ان شالة ووليلي قسم تعميرها بل تمدينهما قبل العصر الرومانى ودللت العقريات عام 1960 جنوبي الحمامات بثاموسيدا على أن المدينة يرجع تاريخ تعميرها هي وكل من بناسا وشالة إلى ما قبل الاحتلال الرومانى لموريطانيا وان سكانها تعاملوا مع العالم الرومانى منذ القرن الأول قبل الميلاد.

اما التنقيبات التي أجريت في أحد أحيا، تموسيدة منذ 1962 فقد ادى آخرها الى الكشف عن عشر غرف بأساطينها وتيجانها ومستودع لاوية الخزف ومطحنة للقمح ونحو مائة قطعة من النقود مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الناحية تجارية يرجع تأسيسها إلى أوائل القرن الثاني الميلادي.

وهناك ايضاً خمسة مستويات تراوح التنقيب فيها بين متراً واحداً عمقاً وازيد من أربعة امتار يرجع سطحها الاول الى القرنين الثاني والثالث وسطحها الثاني الى القرن الاول اي عقود من السنين قبيل وبعد احتلال روما لموريطانيا أما السطح الثالث فانه من بنا، آخر القرن الاول قبل الميلاد حيث عثر على نقود من العهد الجمهوري وعهد ملوك موريطانيا والحواضن البوئيقية وقناديل عهد الامبراطورين قيصر واجست . أما السطح الرابع (وهو ما بين ثلاثة واربعة امتار و 30 سنتيمتر تحت الأرض) فان أواني الفخار والنقود منعدمة فيه ويرتفع تاريخه الى نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الاول قبل الميلاد وهكذا تؤكد أن الاحتلال الرومانى كان مسبقاً بتجميع انسانى وبنيات بدائية في تموسيدة وقد عثر على لائحة أسماء فخاريين غولبيين وعلى صفيحة من البرونز هي الوحيدة بين احدى وخمسين عثر عليها في الأقاليم اليونانية Aquae Helveticae فهل يدل ذلك على تسرب فوج عسكري الى تموسيدة من ديتينا Rhétie اي سويسرا الرومانية؟ ان كتابات أخرى وقع الكشف عنها في المدينة تشهد بذلك .

اما النقود فان مجموعها مائة وثلاث قطع منها أربع وخمسون وجدت خلال التنقيب الثالث وقد سبق

(9) Le géographe de Ravenne يايطاليا الذى نشر عام 1688 ويرجع تصنيفه الى القرن السابع الميلادى وهنالك رحلة أخرى تسمى رحلة سيلاكس Périple de Scylax وهو جغرافي وبavarغربي من القرن السادس الميلادى كلفه شاه فارس داريوس الاول بجولة في نهر الهندوس فجال في البحر الى الخليج العربى الا أن الرحلة التى تحمل اسمه هي من تصنيف جغرافيين يتبعون لتصور مختلف (وخاصة القرن الرابع) وقد أشارت هذه الرحلة الى نهر آخر هو Krabis يقع بعد نهر اللكوص وكذلك الى مينا، فيبقى يسمى Thymiatéria الذي سبق أن نص على تأسيسها حانون في رحلته 450-475 ق.م.) . وحدد موقعه بين أساطين هرقل واللكروس .

ويظهر من السور الخارجى لمدينة ثاموسيدا الواقعة على بعد أحد عشر كم من القنيطرة أن مساحتها تقدر بنحو خمسة وعشرين هكتاراً وما زالت الارضية مائلة للعبان مع بقايا بنية مستديرة على ضفة الوادى يظن أنها مجموعة الحمامات التي بدأ التنقيب فيها عام 1932 وقد اسفلت العقريات لحد الآن عن شارع طويل يدل اتجاهه وموقعه على أنه موالشارع الاساسى Decumanus Maximus وتمتد بقاياه اربعين متراً في عرض يبلغ خمسة امتار غير أن المجموعة الهامة في هذه الانقضاض هي بناية كبيرة شرقى المدينة تضم سلسليتين من الغرف بجانبى صحن دار atrium وقاعة وسطى على غرف الالواح Tablinum في الدور الرومانى وهي أشبه بغرفة أساسية في قصر قائد الجيش وهذا هو الذي حدا الى اعتبار هذه البناء بمثابة مسكن .

اما الساحة العمومية forum فيظهر أنها بجوار الحمامات وضريح سيدى على ويمد التنقيبات التي بُوشرت بين 1959 و 1962 برزت الابواب الاربعة والابراج الاربعة عشر للسور مع تخطيط واضح لهذا السور وبقايا فرن للتحديد أما الفسيفساء فانها منعدمة وخاصة في المستعمرات بينما تتوافق قطع النقود خاصة في العصر الجمهوري مع ثلاثة مستودعات نقدية راجعة للقرن الثالث الميلادى أضفت الى ذلك أنواعاً قدية من الخزف وصورة أسد مفترض منحوت على الحجارة ومجموعة من تماثيل البرونز . *

هذا وإن البحث عن تاريخ تأسيس بعض المدن

(9) وهما ويتقان اصحابهما الثانية لأن الاولى مملوقة بالمناقشات حيث تشير الى وجود تموسيدة بدل تموسيدة وتجعلها بين شالة وسبطة .

القرن الاول وخاصة اوائل القرن الثاني الميلادي وقد عثر على مثيلاتها في شمال فرنسا والمانيا وسويسرا وكذلك اسبانيا ووجود هذه القطعة الزجاجية في تموسیدا من الغرائب لا سيما اذا اعتبرنا بعد المسافة وقابلية الزجاج للكسر.

ومن جملة البنايات التي برزت معالمها بعد الكشف المعبد الذي ربما خصص لآلية افريقية من مصدر بونيقي غير أن هذه المعابد تكون في الغالب بعيدة عن أمكنة السكنى كما هو الحال بالنسبة لمعبد زحل *Saturne* في دوكا ومعبد العين في تسكاد ولكن معبد تموسیدا أصبح قائما داخل المدينة التي اتسعت جوانبها ففي النصف الثاني من القرن الاول ايلادي الذي هو عصر الازدهار الاقتصادي للمدينة على اثر قيام موريطانيا الطنجية أما القلعة فان طولها يبلغ 165,85 متر وعرضها 138,78 متر اي مساحة تعادل هكتارتين اثنين وربع هكتار وهي أعظم معسكر في موريطانيا الطنجية حيث ان المعسكرات الأخرى بشالة وسوق الاربعاء، وتمودا وفريجيدا لا تتجاوز مساحتها الهكتار الواحد فأقل عدا معسكر طوكو لوسیدا قرب وليل الذي يبلغ طول أضلاعه مائة وستين مترا (I4) وقد بنيت القلعة بأبراجها دفعه واحدة وعشر فيها على فرن للعديد وطبقات من الرماد مما قد يجعل على الظن بوجود منطقة صناعية في هذه الجهة ويظهر أن القلعة كان لها تصميم معماري مستقل عن باقى المدينة وقد كشفت التنقيبات عن مرآة من تسع عشرة درجة في كل من الشرق والجنوب بالقرب من الأبواب القلعة أما الابراج فعددها اثنان وعشرون والأبواب أربعة موزعة على الجنوب والشمال والشرق والغرب ويظهر من بعض الكشوف الحفرية أن ثلاثة أبواب سدت بعد نزوح الرومان عن القلعة واحتلال عناصر جديدة لها فلم يبق سوى ممر ضيق من الباب الشرقي.

وهكذا تتجل الاهمية البالغة التي اتسمت بها هذه المدينة القديمة التي يظهر من النصوص والحفريات أنها أسست قبل دخول الرومان الى المغرب.

عبد العزيز بنعبد الله

الخامس عشر قبل الميلاد في اتحاد اثنى عشرة جمهورية بسطت نفوذها على ايطاليا من القرن العاشر الى السابع قبل الميلاد وقد تأثر الرومان بحضارتهم المائة الى الآن في الفن

160 ص 1900 Elworthy by قلم

Amulettes puniques في كتابه الحروز البوئيقية Cintas

(تونس 1946 ص 143) لا آلهة ولا حيوانات مقدسة وانما أيد وأعضا. تناسليه الخ.

(14) حسب Châtelain صاحب مغرب الرومان ص 133 او 135 مترا حسب تنقيبات مصلحة الآثار

بعضها في مالقا وطنجي وليكسوس وشانة في عهد بوكود الاول ويبوبا الثاني ونيرون وسيفير كما عثر على قطعة مسكونة في المهد الاسلامي وفي خصوص الخزف شر على نوع يسمى بفار باناسا رقيق فيه خطوط متوازية مصبوغة بعد الوان تتصل أحيانا بمثل فقر الاسماك وهي شبيهة بالاخزاف الابييرية ibérique غير ان صبغتها الموريطانية ت أكدت بوجود افسران خزفية في أعماق أرض باناسا كما عثر على نظائر من هذا الخزف الملون بوليل وهو شاعد أساسا - كما يقول موريس اوزيينا - (IO) بوجود حضارة موريطانية قبل المهد الرومانى لا سيما وان خزف باناسا لا يوجد الا في السطح الرابع الذي سبق تاريخ كل نفوذ رومانى .

وهنالك نوع آخر من الفخار له دهن اسود لامع وجدت منه 700 قطعة في السطح الثالث وهو نوع ايتروسكى etrusque (II) ولعل اسبانيا كانت صلة الوصل لاستيراد هذا الخزف الابطالي الى موريطانيا حيث تفتحت لهذا التأثير منذ القرن الاول قبل الميلاد بل كانت تصنع نماذج شبيهة ببعض الانواع الرومانية الموجودة في تموسیدا أما القناديل المصنوعة من الطين التنجي فالبعضها يرجع الى ما قبل الميلاد . وهنالك أنواع من المعادن مثل صحون البرونز الذي رسمت عليه يد مفتوحة من جهة ويد مضمومة الاصابع من جهة أخرى ومعلوم أن اليد المفتوحة تستعمل عادة كحرز(I2) وكانت الحروز وخاصة منها اليدوية منتشرة عند الشعب في العصر البوئيقى اكثر من الرموز الأخرى وقد لوحظت هذه الظاهرة منذ القرن الخامس واستمرت على ما يلوح الى القرن الاول قبل الميلاد (I3) وقد عثر كذلك على ابازيم مناطق مفضضة ومقاييس وعرى اكواب وصنانير كل ذلك من البرونز ثم 29 مقدانا مقلاع عيام الرصاص وكعب من العظم مرقة للكعب وبقية قنية من الزجاج الازرق الكيف الشفاف وآنية زجاجية صفراء نصف شفافة برسوم بارزة يمثل بعضها بناء ذات أربع نوافذ ويتقال بأن هذه الاوعية صنعت في نورمانديا وبريطانيا أواخر

(10) تموسیدا ج 1 ص 78

Etrusques

الخامس عشر قبل الميلاد في اتحاد اثنى عشرة جمهورية

العاشر

الحادي عشر قبل الميلاد وقد تأثر الرومان بحضارتهم المائة الى الآن في الفن

160 ص 1900 Elworthy by قلم

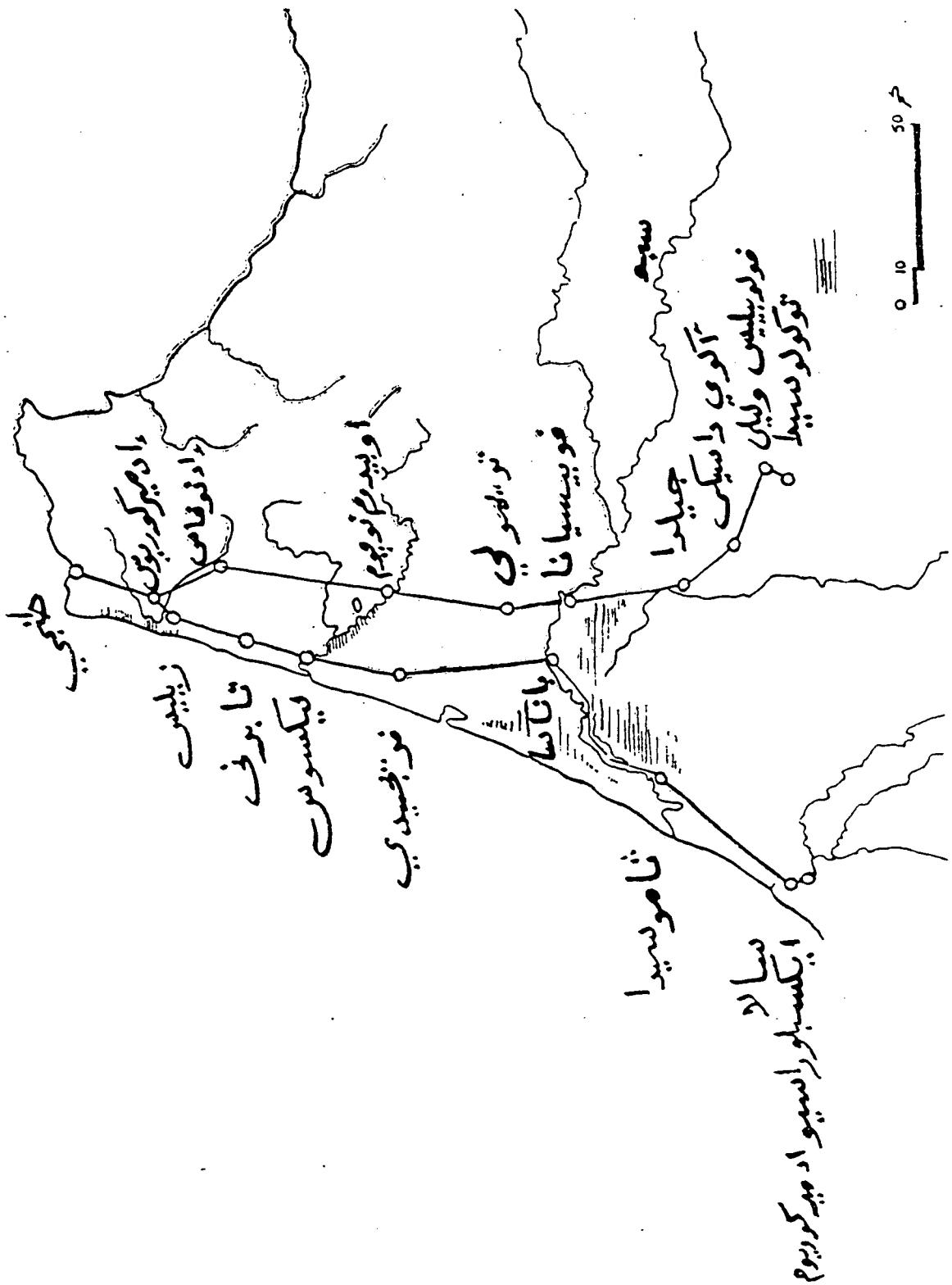
Amulettes puniques

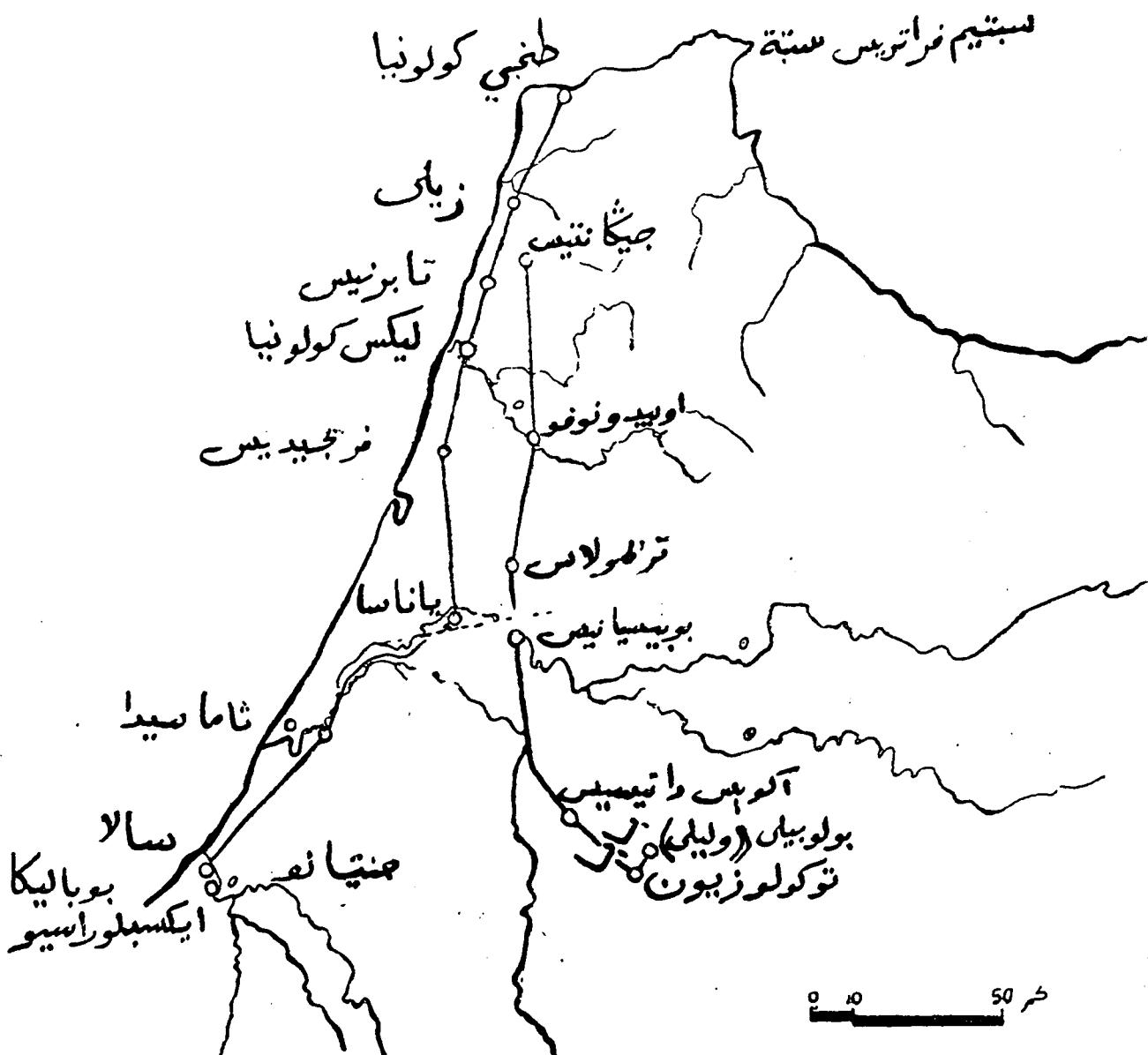
تونس 1946 ص 143)

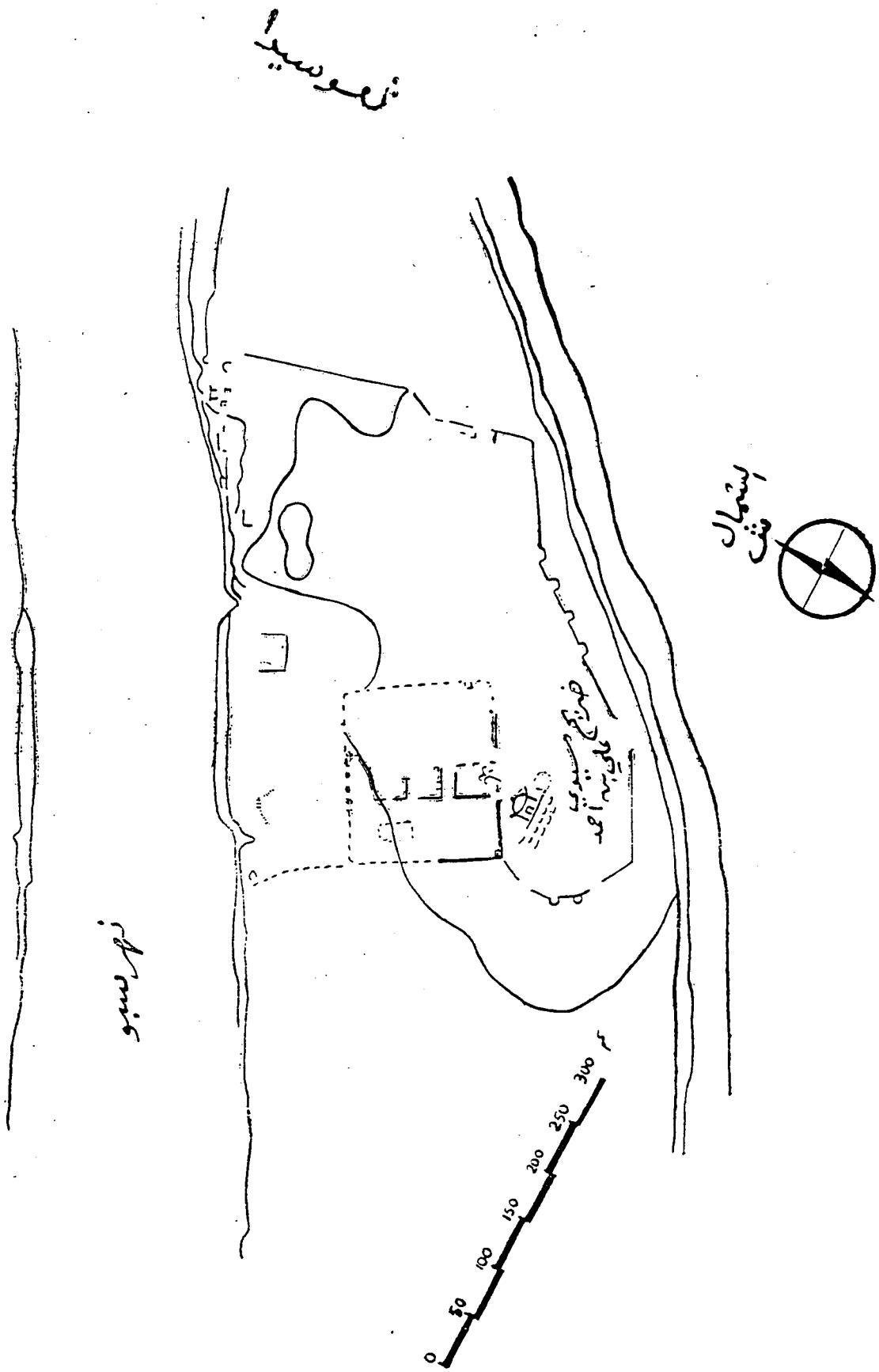
لا آلهة ولا حيوانات مقدسة وانما أيد وأعضا.

التناسلي الخ .

خریطة انطوان







نحو سيدا

